

آخر قطعة في بازل النيل

حمادة حامد محمود نور الدين

قضى الحاج أنور أربعين سنة يصنع صورة النيل من أربعين ألف قطعة خشب... ومات قبل قطعةٍ واحدة.

وفي جنازته، وقف أهل الحارة كلهم على باب الورشة الصغيرة، وكل واحدٍ منهم حامل قطعة خشب: صاحب المقهى جاء بضلفة شباكه القديم، والنمّاص جاء بعرق من عرق الدفّ، والعمدة نفسه جاء بقاعدة كرسيه المكسور. قالوا: الحاج كان بياخد الخشب اللي خلص عمره... ويديله عمر تاني في النيل.

ورثت حفيدته سلمى الورشة كلها: المنشار القديم، ورق الصنفرة، علب التصبغة، واللوحة العظيمة التي تملأ الحائط الجنوبي كله: النيل من أول الخريطة إلى آخرها، كل انحناءة فيه منحنى يعرفه الحاج بقلبه، وكل جزيرة قطعة، وكل مركب قطعة... إلا فراغًا واحدًا صغيرًا في قلب النهر، بشكل مركبٍ صغير، تلسع العينَ كلما وقعت عليه.

جاءت سلمى من القاهرة لتقفل الورشة وبيعها؛ فهي مهندسة في شركة كبيرة، ولم تزر جدها منذ سنتين، وكانت تقول لزميلاتها: «جدي بيعمل بازل» ثم تضحك ضحكةً صغيرة معتذرة، كأن البازل

لعبة أطفال لا تليق برجل. وكان في جيبها تليفون فيه ثلاث مكالمات فائتة من جدها لم تردّ عليها: واحدة قبل موته بشهر، وواحدة قبلها بشهرين، وواحدة في عيد ميلادها، ترك فيها رسالة صوتية لم تسمعها حتى هذه اللحظة، مدّتها دقيقة وإحدى عشرة ثانية.

لكنها حين رأت اللوحة وقفت أمامها ساعةً كاملة، ولم تستطع أن تقول بعدها كلمة «بيع» بسهولة. وقفت تتبّع النهر بإصبعها: من النوبة إلى القاهرة، من القاهرة إلى فرعي رشيد ودمياط، وكل قطعة فيها لمعة زيتِ يدٍ اشتغلت عليها أربعين سنة.

وعلى مدار اليومين التاليين، جاء الجيران واحدًا واحدًا يعزّون ويحكون: كيف كان الحاج يشتري من كل بيتٍ اتهدّم بابه القديم، وكيف كان يقف أمام اللوحة كل مغربية بكوباية الشاي يكلّم النهر كأنه صاحبه، وكيف قال لصاحب المقهى مرة: «الناس بتفكرني بركّب خشب... أنا بركّب أيام.»

سألت عم شعبان، مساعد جدها العجوز، عن القطعة الناقصة. فقال وهو يحكّ ذقنه: «الحاج كان بيقول: القطعة الأخيرة ما تتصنعش

باليد يا شعبان... القطعة الأخيرة بتيجي. وكنت أقوله: اعملها يا حاج وخلّص، فيقول: لسه. أربعين سنة وهو يقول لسه.»

بحثت سلمى في الورشة ثلاثة أيام. فتحت كل درج، وقلّبت كل علبة، وصنفرت أصابعها على كل قطعة خشبٍ مرفوضة في صندوق الفضلات. لا قطعة بشكل مركب. وفي الليلة الثالثة، وجدت دفتر جدها المغلّف بالجلد، وجلست على كرسيه المهترئ تقرأ.

ووجدت في الصفحات الأولى سطرًا مكتوبًا بخطٍّ أشد ثباتًا، يوم بدأ العمل سنة ١٩٨٦: «النهارده أول قطعة. النيل مش نهر يا أنور... النيل عمر الناس اللي عاشوا عليه. هتعمل صورة عمرك كله، وكل قطعة من حاجة راحت.» وتحت السطر، بعد أربعين سنة، آخر ما كتب بخطٍّ يكاد لا يُقرأ: «باقي قطعة. باقي الراكب.»

كان الدفتر وصفًا لكل قطعة... لا، تاريخًا لكل قطعة. «قطعة جزيرة الوراق - من خشب سقف البيت القديم اللي اتهدم سنة ٩٨.» «قطعة كوبري قناطر - من خشب صندوق عرايس أمك يا سلمى اللي اتكسر في النقلة.» «قطعة شاطئ أسوان - من خشب عود العم محمود الله يرحمه، كان بيغني عليه وهو بيشتغل.»

فهمت سلمى أن اللوحة ليست بازل. اللوحة ذاكرة رجلٍ كامل محفورًا في أربعين ألف قطعة، كل قطعة من خشب شيءٍ عاش معه ثم رحل، فخلّده في النهر. وقلبت الصفحات حتى آخر سطر، فوجدت تحته وصف القطعة الناقصة:

«القطعة الأخيرة - مركب في قلب النيل - من خشب مهد سلمى. المهد اللي عملته لها بإيدي يوم ما جت الدنيا. أغلى خشب مرّ على إيدي في عمري.»

وجدت المهد في المخزن العلوي، ملفوفًا في قماشٍ أبيض، صغيرًا محكمًا، عليه زخرفة مراكب صغيرة محفورة لا تزال تبتسم. بكت سلمى وهي تحمله إلى الورشة، ووضعته بجوار اللوحة، ووقفت بينهما حائرة: تقطع المهد لتكمل النيل؟ أم تبقي المهد ويبقى النهر ناقصًا؟

وفي الصباح جاء عم شعبان، فوجدها ساهمة، فقال: «الحاج كان يقعد مكانك دي كل ليلة، بيبص للفراغ ويبص للمهد، وبعدين يرجع المهد مكانه ويقول: لسه.»

«ليه يا عم شعبان؟ ليه ما عملهاش؟»

هزّ العجوز رأسه: «كنت فاكر إنه بيخاف يخلّص. اللي بيشتغل في حاجة أربعين سنة، خلاصها موتة صغيرة.»

ثم سكت لحظة وأضاف: «بس كان بيقول كمان: أنا مش بعمل صورة يا شعبان... أنا بجهّز حاجة لحد. وما كانش بيكمّل.»

وخرج عم شعبان، وبقيت سلمى في الورشة مع السؤال: حد مين؟

وفي الليلة الرابعة، وأبواب الورشة مغلقة عليها، قررت سلمى. قالت لنفسها بمنطق المهندسة: المهد خشب، واللوحة حياة جدها كلها، والحساب بسيط. ورفعت المنشار إلى المهد... ولم تستطع.

وقفت يدها في الهواء، ورأت على المهد زخرفة المراكب الصغيرة، وتذكّرت فجأة صورةً قديمة في ألبوم أمها: هي رضيعة نائمة في هذا المهد نفسه، وجدها واقفٌ خلفه يبتسم ابتسامةً لم ترَ مثلها في صوره الأخيرة. وحاولت مرةً ثانية، فخانها نفس المنطق الذي قادها إلى هنا: لو كان الخشب هو الحكاية، لما بكى الناس على أبوابٍ مكسورة وشبابيك مقلعة. أنزلت المنشار، وجلست على الأرض بين

المهد واللوحة تبكي، ثم التفتت إلى الدفتر تطالع آخر سطر مرةً أخيرة، فلمست الورقة شيئًا أثقل: صفحة أخيرة ملتصقة بالغلاف، لم تُفتح منذ سنين. فتحتها برفق، وقرأت بخط جدها المرتعش:

«لو وصلتي للورقة دي يبقى انتي اللي واقفة قدام البازل دلوقتي، ويبقى أنا خلاص مشيت. متقطعيش المهد يا سلمى. القطعة الأخيرة مش من الخشب، ولو كانت من الخشب لكنت عملتها من زمان. القطعة الأخيرة انتي. الفراغ اللي في النيل ده مكانه مقصود: كرسي. حطّي كرسي المخزن قدام اللوحة، اقعدي في الفراغ، وبصّي للنيل... هتلاقيه كامل. أنا عملت الصورة كلها عشان لما تقعدي مكاني، تشوفي اللي أنا كنت بشوفه.»

وضعت سلمى الكرسي مكان الفراغ، وجلست، ورفعت عينيها. والتقت كل خطوط النهر حولها، ودار الماء من كتفها إلى كتفها، وصارت هي المركب في قلب النيل، وفهمت أن جدها لم يترك اللوحة ناقصة أبدًا... تركها مكتملة بمن يحبها.

وفي تلك الليلة سمعت سلمى الرسالة الصوتية المؤجلة، دقيقة وإحدى عشرة ثانية من صوت جدها: «كل سنة وانتِ طيبة يا

سلمى. أنا عارف إنك مشغولة... ومش زعلان. بس لو جيتي يوم، هوريكي حاجة. عملتلك مركب في قلب النيل يا حبيبتي... ولسه مستني راكبها.»

بعد شهر، فتحت سلمى الورشة للناس بدل أن تقفلها: «بازل الحاج أنور - كل يوم من ١٠ ل١٠». يدخل الزوار، ويطوفون حول اللوحة العظيمة، ويسألونها سؤالًا واحدًا لا يفشل أبدًا: «إيه الفراغ اللي في النص ده؟» فتحكي. ويجلس كل منهم، واحدًا واحدًا، على الكرسي، ويرفع عينيه إلى النهر، ويسكت طويلًا، ويخرج وهو ينظر إلى هاتفه... يتصل بأمه، أو بابنه، أو بصديقٍ قديم.

ومن الزوار الذين لا تنساهم سلمى: طفلٌ في الثامنة جاء مع أمه، وسألها بصوتٍ عالٍ: «هو ليه عمو أنور ساب المكان فاضي؟» فقالت له الأم تعتذر، لكن سلمى جلست مع الطفل على الكرسي وقالت له: «عشان لما تيجي تقعد هنا... النيل يبقى كامل.» فجلس الطفل، وفتح ذراعيه كأنه شراع، وضحك، وقال لأمه: «أنا المركب يا ماما!» وتصوّر، والصورة دي معلّقة النهارده على باب الورشة من جوّه، أول صورة في شريطٍ طويل من الصور.

وما زال الفراغ في قلب النيل كما هو، بلا قطعة خشب. لكن عم شعبان يقول للزوار وهو يغلق في العاشرة مساءً: «البازل ده مش ناقص. البازل ده بيتعمل كل يوم من جديد.»

تمّت

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app